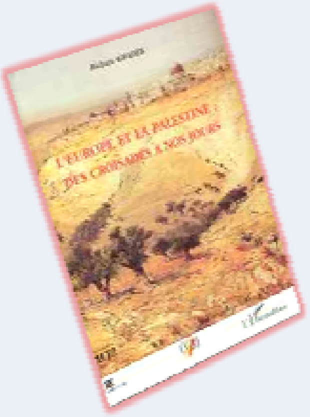

# أوروبا وفلسطين: من الحروب الصليبية إلى العصر الحديث

L'EUROPE ET LA PALESTINE DES CROISADES A NOS JOURS

المؤلف : بشارة خضر *Bichara Khader*

أستاذ بجامعة لويفان (لوزان) الكاثوليكية – بلجيكا

منشورات لاهرماتان Coédition L'Harmattan سلسلة فهم الشرق الأوسط ،(٥٧٤) صفحة

عرض

د.صفوت حاتم

## مقدمة

تحكي الأسطورة القديمة الموغلة في القدم أن الملك الفنيقي " آجينور" ( ملك بلاد كنعان وفلسطين ) أنجب من زوجته " تليفاسا " صبية رائعة الجمال أسمياها " أوروبا". وحدث ذات يوم أن رأى الإله الإغريقي " زيوس " أوروبا وهي تلعب مع قريناتها على شاطئ البحر فوقع في حبها على الفور وقرر أن يحتفظ بها لنفسه . وفكر "زيوس " في أن يجذب انتباه الفتاة الجميلة إليه فتنكر في شكل ثور أبيض وأختلط بالبنات اللاهيات على شاطئ البحر. وما لبثت " أوروبا" أن وجدت في هذا الثور الأبيض كثير من اللطف والنعومة ما أغراها بالصعود على ظهره . وما أن استقرت على ظهره حتى هب واقفا وخاض بها البحر حتى وصل إلى جزيرة " كريت " حيث كشف لها عن حقيقته وأعلن لها عن هيامه بها. وهكذا تزوج " زيوس" من " أوروبا " تحت شجرة دلب ستبقى خضراء طول العمر .

وأنجبت " اوروبا " من " زيوس " ثلاثة ذكور هم : " مينوس " و "رادامانتا " و " ساربيدون". ويقرر الملك " آجينور " الملتاع على أبنته الجميلة " أوروبا " أن يرسل في البحث عنها أولاده الثلاثة : " سيلكس " و " وفينيقوس " و " قدموس " وسترحل معهم في رحلة البحث عن " أوروبا " أمهم " تليفاسا" . وينجح " قدموس " الذي يعني أسمه " الشرق" في الوصول إلى شبه القارة اليونانية حاملاً معه من أرض كنعان " الألفا باء " ويتوج ملكا ويطلق على الأرض الجديدة أسم أخته التائهة " أوروبا".

وهكذا ستعطي أرض فلسطين للقارة الجديدة أسم أميرتها المخطوفة " اوروبا " . ولكنها تعطيها في نفس الوقت شيئا آخر أتي به "قدموس" من أرض فلسطين ، حيث سينقل معه للأرض الجديدة المعرفة العلم ممثلً في الأبجدية "الألفا باء"

بهذه الأسطورة يبدأ بها " بشارة خضر " كتابه عن علاقة أوروبا بفلسطين منذ فجر التاريخ.. وهي أسطورة تلخص في مجملها العلاقة العجيبة التي ربطت منذ زمن موغل في القدم بين أوروبا وهذه القطعة الصغيرة من أرض الشرق التي سميت فيما بعد بأرض " فلسطين" .

## هدف الكتاب

ورغم أن فصول الكتاب ومنهج التناول وطريقة السرد تمت صياغتها بشكل يخاطب بشكل أساسي القارئ الأوروبي الذي يجهل كثير من التفاصيل المتعلقة بالقضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني. إلا أن هذا المنهج وذلك السرد لم يمنعا من كون العديد من فصول الكتاب وكثير من المعلومات التي ذكرها تظل جديدة على القارئ العربي المهتم بفصول الدراما الفلسطينية ، فضلاً عن أهميتها للباحث المتخصص في الشئون الفلسطينية و صانع القرار السياسي لفهم الخلفيات التي تحكم الأطراف التي تتعامل مع هذه القضية .

ويبدأ الكاتب عمله التوثيقي عن العلاقة بين أوروبا وفلسطين بالتأكيد على مفهوم " عقدة الخوف " التي ربطت منذ قرون بين العرب والأوروبيين والكامنة في وعي كل منهما تجاه الآخر . ويرى الكاتب أن التاريخ الملتبس والدامي بين الطرفين سيظل محكوما حتى يومنا هذا بتاريخين معينين كان لهما السطوة الكاملة على اللاوعي الغريزي للعرب والأوروبيين. التاريخ الأول هو عام ٧١١ ميلادية وهو تاريخ بداية الوجود العربي في الأندلس ، والتاريخ الثاني هو عام ١٠٩٩ : تاريخ تأسيس الإمبراطورية اللاتينية في القدس بعد الحملة الصليبية الفرنجية.

ورغم أنه لا يمكن مقارنة الوجود العربي في الأندلس بالوجود الصليبي في الأرض العربية من الناحية الحضارية . إلا أن "عقدة الخوف" المتبادلة بين الطرفين ظلت مستعرة حتى يومنا هذا. ففي الجانب الأوروبي ظلت بعض الدوائر السياسية والفكرية من اليمين إلى اليسار تغذي هذه العقدة خصوصا بعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران وصعود التيار الإسلامي شعبيا في العديد من البلدان الإسلامية. وهذا يفسر – على حد قول الكاتب - الانتشار غير العادي لمقالة " صامويل هنتجتون" عن صدام الحضارات في عديد من الأوساط الفكرية والثقافية الغربية رغم تهافت منهجه العلمي وتبسيطه المبتذل للعلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية . ورغم هذا فقد تبنت الأوساط السياسية الغربية مقولات " هنتجتون " في صياغة مفاهيم سياسية وأهداف إستراتيجية للتعامل مع الدول الإسلامية بشكل خاص وبلدان الجنوب بشكل عام.

أما في الجانب العربي فقد ظلت ذكريات الحروب الصليبية هي المغذي لرؤية العرب للغرب. بل أن كثير من العرب لا يرون إنشاء دولة إسرائيل إلا من خلال منظور الحرب الصليبية وإنشاء أول إمبراطورية صليبية على أرض فلسطين عام ١٠٩٩ ميلادية .

والكتاب يبدأ بوضع الصورة العامة التي كان يعيش في ظلها العرب والأوروبيين عشية الحروب الصليبية. وفيما يمكن استخلاصه من هذا السرد أن المواجهة السياسية بين الطرفين كانت فيما يبدو " حتمية " نظرا للأوضاع السياسية التي كان يعيش في ظلها الطرفان ، فالعالم العربي كانت تتقاسمه ثلاثة قوى سياسية : الدولة العباسية ومركزها بغداد .. الدولة الأموية ومركزها قرطبة .. الدولة الفاطمية ومركزها القاهرة. ولا ينسى الكاتب أن يذكرنا أن هذه القوى الثلاثة كانت تتنازع

فيما بينها لقب " الخلافة الإسلامية " وتدعي كل منها أحقيتها بقيادة المسلمين دون الآخرين مما جعل من الإسلام والدين الإطار التبريري للصراعات السياسية خصوصا عندما فرض الفاطميون على المناطق التي يحكمونها المذهب الشيعي في مواجهة المذهب السني الذي كان سائدا في بقية إنحاء العالم العربي.

أما أوروبا المسيحية فقد كان يتنازعها إمبراطوريتان سياسيتان تعتمد كل منهما على مرجعية دينية مختلفة. فالإمبراطورية البيزنطية في الشرق وكانت تابعة للكنيسة البابوية في القسطنطينية. الإمبراطورية الثانية هي الإمبراطورية اللاتينية الجرمانية في الغرب والتي كانت تابعة للكنيسة البابوية في روما.

هل كان لهذه الصراعات السياسية المتخفية بالدين دور في الصدام الحتمي بين شاطئ المتوسط والذي سيكون الدين هو تبريره الأعلى والحروب الصليبية هي أداته المباشرة ؟ يبدو أن الكاتب يميل لهذا الاعتقاد. فهو يرى أن هزيمة الإمبراطورية البيزنطية أمام السلاجقة الأتراك المسلمين عام ١٠٧١ واستيلائهم على كل آسيا الصغرى كان بداية التفكير العملي في الحروب الصليبية. ففي أعقاب هذا الاجتياح التركي طلب الإمبراطور "ميشيل السابع"عام ١٠٧٣ دعم البابا " جريجوار السابع " لنجدة مسيحيي الشرق. ولكن انشغال البابا بالحرب ضد الإمبراطورية الجرمانية لتكريس سلطته عمل على عدم تحقيق مشروع الحرب الصليبية. ولكن ما تلبث أن تنتعش الدعوة مرة أخرى مع عام ١٠٨٩ عندما بدأت المفاوضات بين البابا " أوربين الثاني " والإمبراطور البيزنطي " الكسيس " للحصول على دعم كل منهما للأخر. فالبابا كان يواجه الإمبراطور"هنري الرابع" ، والثاني كان يواجه التوسع النورماندي .

وبمجرد أن تدعمت سلطة البابا " أوربين الثاني " في مواجهة "هنري الرابع" حتى انفتح الباب على مصرعيه للحملات الصليبية. الحملة الأولى عام ١٠٩٦ ، الحملة الصليبية الثانية عام ١١٤٧ (كونراد الثالث و ولويس السابع)، الحملة الصليبية الثالثة عام١١٨٩(فردريك باربروس وفيليب أوغست وريتشارد قلب الأسد)، الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٢ (بودوان التاسع وبونيفاس دو مونتفيرا ولودوج داندولو)، الحملة الصليبية الخامسة عام ١٢١٧ (ملك بلغاريا بندريه الثاني وجان دو بريان)، الحملة الصليبية السادسة عام ١٢٢٨ (فردريك الثاني)، الحملة الصليبية السابعة عام ١٢٤٨ (سان لويس)، الحملة الصليبية الثامنة عام ١٢٧٠ سان لويس وإدوارد ملك إنجلترا .

## نهاية الحملات الصليبية ١٢٩١

ويذكر المؤلف في تقييمه للحروب الصليبية كيف كان الدين هو الإطار التبريري الذي أستخدم في تبرير ما هو سياسي واقتصادي وعسكري . بل إن المؤلف يكشف في هذا الفصل عن الاضطهاد الذي لاقاه اليهود والمسحيين الشرقيين والمسلمين بالطبع على يد الصليبيين . ورغم أن الإمبراطورية البيزنطية المسيحية كانت هي التي طلبت النجدة من الإمبراطورية اللاتينية المسيحية أيضا ، لكن الحملات الصليبية ستدور في عكس مصالح المسيحيين الشرقيين في القسطنطينية . وتذكر " سيسيل موريسون " في كتابها : " أن الحملات الصليبية لم تسفر إلا عن تردي في العلاقات بين المسيحيين الكاثوليك والمسيحيين الأرثوذكس". ومع بداية عام ١٢٦٠ سيتولى المماليك حكم مصر وفلسطين وسوريا . ولن يلبث أن يظهر من بينهم المملوك " بيبرس " الذي سينتصر عام ١٢٩١ على سان جان ملك عكا لتنتهي بذلك الموجات الصليبية على فلسطين والعالم العربي التي استمرت لمدة قرنين من الزمان ، وسينجح المماليك في فرض حكمهم على كل من مصر وسوريا وفلسطين لمدة قرنين ونصف كوحدة إدارية وسياسية واحدة (هل هي مجرد مصادفة تاريخية ؟) حتى ينتزع منهم العثمانيون حكم الشرق العربي.

## حلم نابليون الإمبراطوري

من الشائع أن الهدف الأول للحملة الفرنسية على مصر هو قطع طريق المواصلات البحرية بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند. في هذا الفصل يوضح الكاتب أن حلم " نابليون " في تكوين إمبراطورية شرقية هو امتداد للحلم الصليبي الأوروبي الذي كان يرى في السيطرة على الشرق مبعث للمجد والقوة . لقد كان "نابليون" يعتقد في ضرورة تأسيس إمبراطورية برية لمواجهة الإمبراطورية البحرية المترامية لعدو فرنسا اللدود إنجلترا ، وأن هذا لن يتحقق إلا بغزو مصر والشرق العربي أما من الناحية الاقتصادية الاستعمارية فقد أرادت فرنسا تعويض مستعمراتها التي خسرتها أمام الإنجليز في كندا والقارة الأمريكية.

## نداء بونابرت لليهود

الجزء المهم في هذا الفصل هو الخاص بالجدل الذي أثير حول صحة نداء " نابليون " ليهود أفريقيا وآسيا الصغرى للاصطفاف تحت قيادته لاسترداد "إمبراطورية القدس القديمة ". وأول من كتب في هذا الموضوع - كما يقول المؤلف- هو الكاتب الصهيوني " ناحوم سوكولو " في كتابه " تاريخ الصهيونية " المنشور عام ١٩١٩ مؤكداً صحة هذه الدعوة ومستندا في هذا إلى خبرين تم نشرهما في الجريدة الرسمية " مونيتور يونيفرسل " ويرجع تاريخهما إلى ٢٢ مايو/ آيار و٢٧ يونيو / حزيران من عام ١٧٩٩ عن دعوة " بونابرت " لليهود بإقامة دولة لهم في القدس وفلسطين.

بينما يدعي كاتب صهيوني آخر هو " فرانز كوبلر " انه عثر على النص الكامل لدعوة" نابليون " وأنها كانت بتاريخ ٤ ابريل / نيسان عام ١٧٩٩ أثناء حصاره لمدينة عكا الفلسطينية. ويذكر المؤلف أن عددا من الباحثين الجادين قد شككوا في صحة هذه " الدعوة " لأسباب عدة منها : أن خطاب الدعوة يقول أن " بونابرت " كتبه وهو في القدس بينما تاريخ الحملة الفرنسية على فلسطين يقول أن " نابليون" لم يطأ أبدا هذه المدينة.

الأمر الثاني أن أسم الحاخام الذي حمل نداء " بونابرت " إلى اليهود وهو الحاخام " هارون بن ليفي " هو اسم وهمي ليس له أي وجود في تاريخ يهود القدس أثناء هذه الحقبة. الأمر الثالث أن أرشيف الحملة الفرنسية يخلو تماماً من أي ذكر لهذه النداء فضلاً عن عدم ذكره من شهودها الذين رافقوها وأرخوا لها .

الأمر الرابع أن "نابليون" نفسه لم يذكر شيئا عن هذه "الدعوة" في مذكراته الشخصية التي كتبها في المنفى في " سانت هيلانة " . الأمر الخامس أن " نابليون " ذكر في حديث له يوم ١٥ يناير ١٨١٧(والذي سجله " جوروجو ") أن اليهود يرغبون في إعادة هيكل سليمان وأن تقديره هو شخصياً أن هذا أمر غير ممكن الحدوث.

ويعقب المؤلف على هذا الخلاف بقوله : " سواء كان دعوة " نابليون " لليهود صحيحة أم لا – كما يحاول الإدعاء الكتاب الصهاينة

–فإن دلالة ذلك الأمر أن دور اليهود في المشروع الاستعماري للإنجليز والفرنسيين كان قد بدأ يداعب خيال القوتين الاستعماريتين مع نهاية القرن الثامن عشر.

## قيام الدولة العبرية ١٩٤٨

يناقش المؤلف في هذا الفصل الظروف التي صاحبت نشأة الدولة العبرية وظهور المأساة الفلسطينية . ويرى المؤلف أن الدول الأوروبية حاولت إحداث نوع من التوازن بين المصالح اليهودية والمصالح العربية من خلال قرار التقسيم ، إلا أن الحرب وتوازنات القوى بين العرب واليهود جاءت كلها لصالح إسرائيل. ويرى المؤلف أن أوروبا لم تقدر - آنذاك - حجم المأساة الفلسطينية المترتبة على التهجير القسري الذي مارسه الإرهاب الإسرائيلي. ولكن الجدير بالذكر في هذا الفصل هو ما كتبه المؤلف عن أشكال المعارضة للمشروع الصهيوني الذي أظهرته بعض الدوائر الأوروبية وبشكل خاص الدوائر المسيحية . ويذكر المؤلف في هذا الصدد مواقف الحزب الاشتراكي المسيحي في بلجيكا ، جماعة الشهادة المسيحية في فرنسا ، وصحيفة الصليب الفرنسية وبدرجة أقل صحيفة "الفيجارو" وقد أدانت هذه الأخيرة على لسان "فرانسوا موریاك" الأعمال الإرهابية لعصابة " شتيرن " .

ويذكر الكاتب أن وضع القدس والأماكن المقدسة كانت هي الموضوعات التي احتلت الاهتمام الأكبر من الدوائر المسيحية الكاثوليكية ومعارضتها الأساسية .

ومن المعلومات التي يذكرها الكاتب في هذا الفصل أن عددا من الدول الأوروبية ظلت مترددة في الاعتراف بالدولة العبرية بسبب الوضع غير الواضح للأماكن المقدسة وهو يفسر تأخر اعتراف الدول الأوروبية بالدولة اليهودية . فلقد اعترفت فرنسا - مثلا - بإسرائيل في ٢١ مايو/ آيار ١٩٤٩ واعترفت بها إنجلترا في ٢٧ إبريل / نيسان ١٩٥٠ ( رغم أنها هي التي مهدت لنشأة الدولة اليهودية ومسؤولة بالكامل عن مأساة الفلسطينيين ) . وينصح المؤلف الباحثين العرب بالتدقيق في مواقف الدول الأوروبية من مسألة الاعتراف بالدولة العبرية والمسألة الفلسطينية آنذاك . ويأخذ الكاتب مثالاً على ذلك موقف بلجيكا ، وبشكل خاص رئيس وزرائها " بول هنري شباك " ( المجهول في الدراسات الفلسطينية والعربية على حد قول المؤلف ) والذي كان معارضا لقرار تقسيم فلسطين وصرح في مناقشات البرلمان البلجيكي أن إنشاء دولة يهودية في المنطقة يشكل " مشكلة جدية وخطراً على العالم العربي.. فهذه الدولة ستكون على حساب الفلسطينيين في البدء ثم على حساب البلدان العربية فيما بعد ".

وستظهر المعارضة البلجيكية في مواضع مختلفة من تاريخ الصراع آنذاك. ورغم أن بلجيكا اضطرت للاعتراف بإسرائيل كأمر واقع de facto في ٢٩ يناير / كانون الثاني عام ١٩٤٩ ، إلا أنها ستنسحب من التصويت على انضمام إسرائيل للأمم المتحدة في ١١ مايو / أيار ١٩٤٩ وسيعلن المندوب البلجيكي أن وضع الأراضي المقدسة ووضع اللاجئين الفلسطينيين وحدود الدولة اليهودية هي أمور لازالت بدون حلول عملية .

ويذكر المؤلف أن أشد المتحمسين لهذا الموقف كانت الدوائر الكاثوليكية وبشكل خاص صحيفة " بلجيكا الحرة " بينما كان الاشتراكيون والشيوعيون هم أشد المنتقدين لموقف حكومتهم !! وعندما اعترفت بلجيكا بالدولة اليهودية اعترافاً قانونياً de jur في ١٦ يناير / كانون الثاني ١٩٥٠ لن تتردد وزارة الخارجية البلجيكية في إصدار تصريح يقول أن الاعتراف بالدولة اليهودية لا يعني الاعتراف بالحدود التي تمارس عليها سيادتها الوطنية ولا موقفها من وضع الأراضي المقدسة " . وهو ما كان يعني عدم الاعتراف بالخطوات التوسعية التي فرضتها إسرائيل بعد حرب ١٩٤٨.

ومما يذكره الكاتب في هذا الفصل أن الأحزاب الاشتراكية ، وبدرجة أكبر الأحزاب الشيوعية الأوروبية كانت هي أكثر الأحزاب تحمسا للدولة الإسرائيلية وأكبر داعية للاعتراف بها !!ويرى الكاتب أن تفسير ذلك يعود لارتباط الأحزاب الشيوعية الأوروبية بمواقف الإتحاد السوفييتي الذي كان أول دولة تعترف قانونيا بالدولة اليهودية فور قيامها. بل أن الإتحاد السوفييتي وضع من نفسه محاميا للدفاع عن إسرائيل وداعية للاعتراف بها !!

## حقبة الحرب الباردة١٩٤٨-١٩٦٧

في هذا الفصل يذكر المؤلف أن الظرف التاريخي الذي أعلنت فيه الدولة اليهودية كان ظرفا مثاليا . إذ ترافق نشوءها مع دخول النظام الدولي في مرحلة الحرب الباردة وانقسام القطبية بين أمريكا وروسيا . ونتيجة لهذا حصل المشروع الصهيوني على أكبر دعم له من ثلاث قوى عظمى هي الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا وفرنسا. في الوقت الذي كانت تواجه فيه حركة التحرر العربي هذه القوى الثلاث في مصر والمشرق والجزائر وباقي بلدان المغرب العربي . ولكن الملاحظ لوقائع هذه الحقبة سيرصد أيضا التغير الذي حدث في مواقف الإتحاد السوفييتي من مؤيد متحمس للدولة اليهودية إلى مؤيد متحمس لحركة التحرر العربي. ويرى المؤلف أن تغير موقف الإتحاد السوفييتي لا يمكن فهمه على أساس أنه تغير في عقيدة الأحزاب الشيوعية السوفياتية من المسألة اليهودية بقدر ما يمكن فهمه في ضوء الصراع مع الكتلة الرأسمالية واستخدام هذه الأخيرة للدولة اليهودية كرأس رمح في مواجهة الوجود الشيوعي في الشرق الأوسط.

ولكن الدعم الغربي والأوروبي بالذات للدولة اليهودية سيعمل على فقدان الغرب لمصداقيته في الشرق العربي وستظل الشكوك تحيط بموافقته حتى هذه اللحظة . ولن ينجو من هذه الشكوك سوى فرنسا التي كانت قد بدأت تخرج في أواسط الستينات من عقدة الجزائر وتعاظم مصالحها الاقتصادية والجاسوسية في منطقة البحر المتوسط وظهور الانشقاق بينها وبين دول حلف الأطلنطي في حقبة الرئيس شارل ديجول " أو بداية ما سُمي " بسياسة فرنسا العربية " . ورغم أن فرنسا حاولت دفع اوروبا لتبني طريق خاص فيما يتعلق بالصراع العربي الصهيوني أكثر توازنا ، إلا أن اللامبالاة ظلت هي السياسة السائدة في التعامل مع الحقوق العربية حتى نكسة يونيو ١٩٦٧ حيث بدأت المأساة الفلسطينية تكسب اهتمام أوروبا.

ولا ينسى المؤلف هنا أيضا إلى التنويه بموقف الأحزاب الاشتراكية والشيوعية الداعم للمواقف الإسرائيلية تحت تأثير النموذج الاشتراكي وتجربة الكيبوتزات التي كان يقودها حزب العمل الإسرائيلي .

## حرب أكتوبر ١٩٧٣

بعد حقبة من الغياب الأوروبي عن الساحة العربية خلال حقبة الحرب الباردة التي ترك أثناءها المسرح خاليا إلا من لاعبين أثنين هما : أمريكا وروسيا وحتى عام ١٩٧٣. ففي هذا العام بالذات أفاقت

أوروبا على حرب عسكرية حقيقية تهدد مصالحها في البحر المتوسط . وبعد قطع البترول العربي تأكد لدي الأوربيين الشعور أن الصراع العربي الإسرائيلي هو أحد المؤثرات الهامة على تطور المجتمعات الأوروبية وأنه من غير الصحيح ترك حقيبة الشرق الأوسط كاملة في يد الولايات المتحدة الأمريكية بمفردها .

وهكذا جاء رد الفعل الأوروبي مبكرا في ٦ نوفمبر ١٩٧٣ ، حيث طالبت دول الإتحاد الأوروبي التسع ( في هذا الوقت ) بعودة المتحاربين لخطوط القتال القائمة قبل ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ وعدم ضم الأراضي بالقوة واحترام سيادة كل دول المنطقة . وكان من الطبيعي أن يستقبل هذا الإعلان بشكل سلبي من الدولة اليهودية والولايات المتحدة الأمريكية .

ويمكن رصد مسالتين تميزان حقبة السبعينات فيما يخص الصراع العربي الإسرائيلي . المسألة الأولى أنه رغم اقتراب الموقف الأوروبي من الموقف العربي بعض الشيء إلا أن أوروبا ظلت ترفض الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني وترفض دعوتها للمشاركة في الحوار العربي الأوروبي .

المسألة الثانية هي معارضة الولايات المتحدة الأمريكية لجهود الحوار العربي الأوروبي ومطالبتها الدول الأوروبية بضرورة مشاورتها قبل اتخاذ إي تدابير مع الدول العربية . ووصل الأمر بالولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٧٤ إلى حد الدعوة إلى تكوين جبهة من الدول المستهلكة للبترول للوقوف في مواجهة الدول العربية البترولية خوفا من حدوث اتفاقات منفردة بين الدول الأوروبية والدول العربية البترولية .

ويذكر المؤلف أن هذه الحقبة تميزت بمحاولات وزير الخارجية الأمريكي " هنري كيسنجر " إقصاء أوروبا عن كل المناورات السياسية والجهود الدبلوماسية التي كان يقوم بها في المنطقة . ووصل الأمر بالرئيس " نيكسون " في خطاب ألقاه يوم ١٥ مارس ١٩٧٥ إلى حد رفض الحوار العربي الأوروبي واعتباره " مؤامرة أوروبية " موجهة ضد المصالح الأمريكية . وقد أثمرت الضغوط الأمريكية عن سحب موضوع الطاقة والبترول من الحوار العربي الأوروبي من ناحية . ومن ناحية ثانية عن إنشاء الوكالة الدولية للطاقة عام ١٩٧٥ التي ضمت الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية فيما عدا فرنسا التي رفضت الانضمام لها ؟ !

## حقبة ما بعد كامب ديفيد ١٩٨٠-١٩٨٩

هذه الحقبة تتميز – كما يقول المؤلف – بدرجة أعلى من التبلور والوضوح في مواقف أوروبا من القضية الفلسطينية ، مثلا : الدعوة لحكم ذاتي للفلسطينيين .. إدانة العنف الإسرائيلي في الأراضي المحتلة .. تنمية العلاقات مع منظمة التحرير الفلسطينية معارضة إجراءات التهويد التي تمارسها إسرائيل في القدس .. إدانة المستوطنات..الخ .

ويرى المؤلف أن الانتفاضة الفلسطينية التي بدأت عام ١٩٨٧ وما رافقها من قمع إسرائيلي وحشي ثم الحصار الاقتصادي على البضائع الفلسطينية ومنع تصديرها للخارج وإغلاق الجامعات الفلسطينية كان له دور كبير في بلورة المواقف الأوروبية باتجاه دعم الأماني المشروعة للشعب الفلسطيني وصلت إلى حد اتخاذ الإتحاد الأوروبي لتدابير عقابية بحق إسرائيل التي كانت تعتبر دولة فوق العقاب ولا يمكن المساس بها .

هذه الحقبة ستنتهي بالحدث الأكثر جذرية في العلاقات الأوروبية الفلسطينية وهو دعوة السيد ياسر عرفات زعيم منظمة التحرير الفلسطينية إلى زيارة مدريد وباريس واستقباله كزعيم دولة عام ١٩٨٩ . ولا ينسى الكاتب أن يشير في استعراضه لتاريخ هذه الزيارة أنه كان عام انهيار الكتلة الشيوعية وتحسن الوضع العربي بعودة مصر للعالم العربي وتكوين مجلس التعاون العربي والإتحاد المغاربي .

انتهت حقبة الثمانينات - إذن - بالحدث الأكثر دراماتيكية في السياسة الدولية وهو سقوط الإتحاد السوفييتي والمعسكر الشيوعي وسقوط حائط برلين ونهاية الحرب الباردة .

ويرى الكاتب أن المميز الحاسم للسياسة الأوروبية في هذه الحقبة هو إنعتاقها أو تحررها من القوالب السياسية التي فرضتها على العالم القطبية الثنائية التي ميزت حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية . لقد فرض سقوط الكتلة الشيوعية ونهاية الحرب الباردة مواجهة الأسئلة المؤجلة حول الهوية الأوروبية والعلاقة مع الولايات المتحدة الأمريكية ومستقبل القارة الأوروبية .

## حرب الخليج المشئومة ١٩٩٠-١٩٩١

يذكر المؤلف هنا أن أوروبا فشلت في أول أزمة دولية بعد نهاية الحرب الباردة لتأكيد استقلالها عن الولايات المتحدة الأمريكية . فهذه الأخيرة قادت الأزمة واحتكرت بدون منافسة سياسية جدية القرارات الإستراتيجية فيها من أول قرار إرسال جنودها للمنطقة انتهاء بالمناورات السياسية الجانبية .

وكالعادة حاولت فرنسا في بداية الأزمة أن تلعب دورا مستقلا عن الدور الأمريكي والبريطاني برفع شعار " حل الأزمة داخل المؤسسات العربية" إلا أن الضغوط الأمريكية نجحت في جر الدول الأوروبية كلها إلى الحرب . أن التحليل الأخير لهذه يؤكد أن أوروبا كانت الخاسر الأكبر في هذه الحرب . لقد فازت الولايات المتحدة بكل جوائز الحرب بينما تحملت أوروبا كل النفقات المادية وخسرت رصيدها السياسي في العالم العربي .

لقد كشفت هذه الحرب - بشكل غير مسبوق - عن الخلل الداخلي الخطير الكامن في الجسد الأوروبي وبشكل خاص في جهازها الدبلوماسي والعسكري لأور. وهو الخلل الذي سيصفه فيما بعد الكاتب " هورست كيلر " بقوله : قد تكون اوروبا عملاقا اقتصاديا ولكنها قزم سياسي ودودة عسكرية . "

الشيء الذي لاشك فيه أن هذه الحرب قد أضاعت سمعة أوروبا بشكل عام وفرنسا بشكل خاص في المغرب والمشرق العربيين . لقد كانت حرب الخليج الثانية ردة بكل المقاييس في المشاعر الإيجابية التي نمت بين العرب والأوروبيين خلال حقبة الثمانينات . فلقد أعادت هذه الحرب مرة ثانية إلى السطح ذكريات الحروب الصليبية لدى الطرفين.

## مؤتمر مدريد وإعادة تهميش أوروبا ١٩٩١-١٩٩٦

في هذا الفصل يذكر المؤلف أنه كان هناك ثلاثة دوافع وراء إسراع الولايات المتحدة الأمريكية بعقد مؤتمر مدريد عام ١٩٩١ . هناك أولا : محاولة أمريكا معالجة الآثار النفسية التي سببتها حرب الخليج في الشارع العربي . وهناك ثانيا : تجنب انسداد الطريق أمام عملية السلام بشكل نهائي بسبب حرب الخليج الثانية من نتائج على الأرض

وأهمها عدم الاستقرار السياسي والهيكلي لأنظمة المنطقة . وهناك ثالثا : سرعة تطويق الأنظمة المعارضة لأمريكا في الشرق الأوسط ( العراق وليبيا وسوريا ) قبل أن تستفيد من حالة العداء الشعبي التي خلقتها الحرب في مواجهة أمريكا .

ومرة ثانية ستعود أوروبا إلى الظل لينفتح المسرح على ممثل واحد فقط هو الولايات المتحدة الأمريكية التي ستمسك في يديها بكل خيوط المفاوضات بين العرب والإسرائيليين.*

رغم ذلك ستستمر أوروبا في دفع فاتورة السلام في صورة معونات للفلسطينيين ( ٥٤ % من المعونات الدولية ) أو للشعب العراقي المحاصر . ويمكن اختصار هذه الصورة بما كتبه المؤلف : " ستدفع أوروبا ثمن تبعيتها للولايات المتحدة الأمريكية سياسيا وعسكريا . "

## حقبة نتنياهو ١٩٩٦-١٩٩٩

مع صعود الليكود للحكم في إسرائيل عام ١٩٩٦ وتولي " بنيامين نتنياهو " رئاسة الوزارة ومع تصاعد أعمال العنف والإستفزاز الإسرائيلي بدا واضحا أن الإدارة الأمريكية عاجزة عن المسك بحزم بأطراف المفاوضات السياسية . هذا من ناحية ، من ناحية ثانية بدأت الدبلوماسية العربية تفكر في ضرورة استدعاء أوروبا لعملية التسوية بعد أن جربت لفترة طويلة الاعتماد على لاعب وحيد هو الولايات المتحدة الأمريكية .

وكالعادة أتت المبادرة من فرنسا . ففي ٢٦ أكتوبر / تشرين ١٩٩٦ دعا الرئيس الفرنسي " جاك شيراك " إلى مشاركة أوروبية في جهود السلام بجانب الولايات المتحدة الأمريكية .

ورغم الرفض الأمريكي والإسرائيلي الحازم لأي مشاركة أوروبية (كالعادة أيضا) إلا إن عام ١٩٩٦ سيشهد بداية المبادرات الأوروبية والرغبة في العودة لساحة التأثير السياسي في الشرق الأوسط وفلسطين : تعيين وسيط أوروبي في عملية السلام ( ١٩٩٦ ) .. توقيع اتفاقية شراكة بين الإتحاد الأوروبي والسلطة الفلسطينية ( ١٩٩٧ ).. الخلاف التجاري بين الإتحاد الأوروبي وإسرائيل حول عدم شرعية تصدير إسرائيل لمنتجات الضفة الغربية والمستوطنات إلى السوق الأوروبية واعتبار هذه المناطق مناطق فلسطينية مستقلة وأن المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة غير شرعية ( ١٩٩٨ ) .. المساعدة الأوروبية في مفوضات " واي بلنتيشن " من خلال نصح الرئيس عرفات بعدم التسرع بإعلان الدولة الفلسطينية من جانب واحد.

خاتمة

هذا الكتاب الثري بمعلوماته والغني بوثائقه يكشف عن العلاقة التاريخية ، التي ربطت منذ فجر التاريخ بين أوروبا التي ولدت في أحضان أرض فلسطين ، كما تقول الأسطورة .

إن الدبلوماسية العربية مطالبة بعد انكشاف الموقف الأمريكي المنحاز لإسرائيل على هذا النحو أن تغير من خططها من أجل عمل توازن جديد ومفيد للمصالح العربية وهو في الظروف الحالية التوازن الذي ترغب فيه أوروبا وتطمح إليه والذي تقوده فرنسا والذي نما سريعا منذ أحداث مذبحة " قانا " في أبريل ١٩٩٦. (*)

إن كل المؤشرات التي خرجت عن الاتحاد الأوروبي وعن فرنسا بالذات تعبر عن رغبة هؤلاء لعب دور كبير في عملية التسوية ، وكان الاتحاد الأوروبي قد أرسل للحكومة الإسرائيلية على لسان وزير الخارجية السابق " هيرفيه دي شاريت " رسالة واضحة من ثلاث نقاط

(١) أن الاتحاد الأوروبي يعلن تمسكه بالاتفاقيات التي تم التوقيع عليها بين الأطراف وليس من حق أي طرف التخلي عنها من طرف واحد.

(٢) أن أوروبا هي الممول الأساسي حتى هذه اللحظة لعملية السلام ( وليس أمريكا ) ومن حقها أن تلعب دورا مميزا في الوساطة بين الأطراف يتناسب مع هذا الدعم.

(٣) أن التفوق الإسرائيلي على العرب لا يعطيها الحق في تقرير شكل عملية السلام منفردة.

ثم تطور الموقف الفرنسي مرة أخرى مع وزير الخارجية في حكومة الاشتراكيين" هيبر فيدرين " الذي نادى وهو في إسرائيل بحق الفلسطينيين في إقامة دولتهم القومية وشن أعنف هجوم يمكن أن توجهه حكومة فرنسية لإسرائيل. وتوج كل هذا المبادرة الفرنسية التي تشارك فيها الرئيسان مبارك وشيراك لعقد مؤتمر دولي لإنقاذ عملية السلام بعد فشل المبادرات الأمريكية المتواضعة. كل هذه التحركات تفصح عن نية أو رغبة أوروبية ( مدروسة ) للمشاركة في عملية التسوية في الشرق الأوسط رغم المعارضة الإسرائيلية والأمريكية .

ولكن ما لذي يمنع أوروبا الآن عن المشي قدما في عملية التسوية السياسية ؟ أنهم العرب أنفسهم .. كيف ؟

المشكلة كما يقول المحلل الفرنسي " آلان جريش " تكمن في العرب أنفسهم .. فالعرب هم الذين لا يريدون اتخاذ أي تدابير حقيقية لمواجهة التحالف الأمريكي الإسرائيلي وفتح الطريق أمام الآخرين لممارسة أدوار أكثر اتوازنا وأقل انحيازا لإسرائيل.. ويضيف : ... مادام العرب لا يتحركون فلماذا يجب أن تقلق أمريكا أو تغير من سياستها ؟ وهو نفس السؤال الذي نسأله في نهاية هذا العرض .

---

بشارة خضر
مدير مركز دراسات العالم العربي المعاصر
بجامعة لويفان الكاثوليكية – بلجيكا

من أعماله:

١- المغرب الكبير وأوروبا ١٩٩٢.
٢- أوروبا والعالم العربي: أبناء عمومة وجيران ١٩٩٢.
٣- أوروبا وبلدان الخليج العربية: شركاء من على بعد ١٩٩٤.
٤- أوروبا وبلدان المتوسط: الجغرافية السياسية للقرب١٩٩٥.
٥- الشراكة الأوربية المتوسطية بعد برشلونة ١٩٩٦.

---

(*) راجع : صفوت حاتم ، الأعمدة السبع للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط ، جريدة القاهرة ، ٥ سبتمبر / أيلول ٢٠٠٠.